obeikandl.com

الهايبون
Haibun

نسيم السعداوي
شاعر وناقد من تونس

باليابان وآدابه، الهايبون تأليف أدبي يجمع بين النثر والهايكو لإبراز تجربة واقعية أو خيالية وعادة وليس ضرورة يأتي في شكل مدونة سفر طويل أو قصير وأشهرها " Oku no Hosomichiطريق ضيق إلى أعماق الشمال" وهو المعروف بالعنوان الإنجليزي : The Narrow Road to the Deep Northلباشو Matsuo Bashō.

يعد ماتيزو مونيفوزا Matsuo Manefusaالملّقب بباشو واحدا من أكبر الشعراء اليابانيين. تمتاز إعماله بالتحكم في الهايكاي-رنجة Haikai-Rengaأو القصائد الحرة المسترسلة. هو من أعطى نمط الهايكو براءة نبله وهو من أبدع بالنمط الخاص الهايبون Haibun، كنص شعري نثري مرصّع بعدد من نصوص الهايكو. يتجذّر نصه "طريق ضيق إلى أعماق الشمال" بنمط الكيكو Kikōأي مدونات السّفر. يحكي هذا النص الصادر تحت عنوان "أوكو نو أوشوموشو" سنة ١٦٨٩، سفره عبر جبال الشمال والوسط باليابان.

الهايبون ببدايته رحلة شاعرية

قضّى باشو "بمنسك نباتات الموز" معظم حياته. غير أنّ حريقا أجبره سنة ١٦٨٣ على مغادرة المنسك والقيام برحلة طويلة . تعلق باشو بالسّفر ولم يتوقف عنه إلى بمماته سنة ١٦٩٤. السفر والتنقل عند باشو كما عند أتباع الكيكو Kikö بالقرن الثالث عشر، فرصة لوصف عظمة المناظر الطبيعية وتأملها. ولكن حيث كانت تقتصر مدونات السفر على وصف سطحي للطريق، فإن باشو تجاوز ملكة المحاكات إلى ملكة التفكير. معه تنتهي الانفعالات الجمالية إلى التأمل. تُنقّط الطريق الذي سلكه باشو استحضار وقائع ومواقع تاريخية، ذكريات أدبية وأناشيد الجمال لمواقع معّينة. من ميزات باشو بمدونات سفره، لغته البسيطة. بمحطات سفره لم يتهاون باشو بالاستلقاء وتأمل النور أو التقاط شعاع شمس منعكسة على سطح بحيرة أو مراقبة أشجار أو كل شكل أو كائن يثير حواسه. كما لا تخلو مدوناته من المزاح أمام عقبات السفر.

وهذه ترجمة* لمقدمة هايبون باشو "طريق ضيق إلى أعماق الشمال" :
"الشهور والأيام رفقاء رحلة الأبدية. السنوات التي تجيء وتذهب هي أيضا مسافرة. أولئك الذين يطيرون بحياتهم على السفن أو الذين يكبرون في السن وهم يركبون الخيول مسافرون أبديون. وبيوتهم عبارة عن أي مكان يقودهم إليه سفرُهم. الكثيرون من القدماء ماتوا على الطريق، وأنا أيضا طوال سنواتي الماضية كنتُ وما زلتُ يثيرني منظر سحابة وحيدة تنساب مع الريح نحو أفكار تجوال لانهائية.
العام الماضي قضيتُه أهيم على وجهي على ساحل البحر. في الخريف، عدت إلى كوخي بجانب النهر ونزعت خيوط العنكبوت. تدريجيا اقتربت السنة من نهايتها.
وعند حلّ الربيع وامتلأ الهواء بالضباب، فكرت في عبور الحاجز "شيراكاوا" في "أوكو". كان يبدو عليّ أنني تسكنني أرواحُ عشقِ السّفر والترحال، وهذه الأرواح سلبتني حواسّي. نادتني الروح الحارسة للطريق، ولم أستطع أن أفترغ لعملي أو أنهمك فيه. رقّعت سروالي الممزق وغيرت الخيط على قبعتي الخيزرانية.
لجعل ساقيّ تقويان على الرحلة، أحرقتُ مستخلص أوراق الموكسا الجافة على أخمص قدمي. في ذلك الوقت، لم أستطع أن أفكر في أي شيء إلا القمر في "ماتسوشيما" Matsushima . عندما بعت كوخي وانتقلت إلى فيلا "سامبو" Sambo للمكوث إلى حين بداية رحلتي، علقت هذه القصيدة على لوح بكوخي:.حتى الكوخ المسقوف بالقش قد يتحوّل عندما يسكنه مالك جديد إلى بيت دمية !".

الهاييون المعاصر

عرف الهاييون عبر القرون عديد التطورات والمدارس. الغرب الذي اهتم بالآداب الروحانية للشرق وخاصة اليابانية، عبّر عن ميول لهذا النمط خاصة بالتسعينات بالثقافات الناطقة بالإنجليزية وبعد ذلك الفرنسية. وهو اهتمام نسبيا حديث. فالجمعية الفرنسية للهاييون L'étroit chemin تأسست سنة ٢٠١١ !.حسب المختص باليابانيات الفرنسي S.(L.) Mabesoone يعدّ نص إيسّا " ") "Issaالقرن التاسع عشر) المعنون " "Chichi no shuen nikkiأروع هاييون بالرّغم من عدم احتوائه على أي هايكو وذلك لأنه نص شعر نثري متموج، كتب بأسلوب مختصر وهجين به عديد الانتقالات من سجل إلى آخر بين الواقع العادي والممل وعديد الاعتبارات الفلسفية الدينية والثقافية باستعماله لغتين. اللغة الرسمية واللغة العامة التي يوجد بينهما حواجز لا تحصى لم يعبأ بها "إيسّا" وحتى تلاعب بها ! كمن يمزج بين اللاتينية والإيطالية أو بين العربية القديمة والعربية الحديثة !

انطلاقا من هذا التعريف الأخير عرف الهاييون المعاصر توسعا برقعة اهتماماته أخرجته من انحصار مدونات السفر. هو اليوم مزج بين نص شعري نثري يمس كل مجالات الحياة والهايكو لا يعترف بحدود اللغة المستعملة ! به روح ضمنية للمعاني، نزعة تهكمية وبهار من السخرية مبنية على طبقات من اللغة المجردة الحديثة وأخرى من اللغة القحة القديمة بتموج محكم.